الصباح الإسلامية
AL-SABAH
No. 5194 | الثلاثاء | 7 ذي الحجة 1446 هـ | 3 يونيو 2025 م | السنة الثامنة عشرة
Alsabah Media www.alsabahpress.com

فرضه الله وجعله في مكانٍ واحد، وزمان واحد يجتمع فيه المسلمون من كل الأقطار بنداء واحد وتلبية واحدة

الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة

يلتقي الحجيج إخوانا في الله رحماء بينهم يتعارفون ويتناصحون ويتعاونون فتتحد كلمتهم وتقوى شوكتهم

أمر واحد جمع أنواعا من النفع تفرقت في غير ومجموعة من البرِّ لم تجتمع في سواه وهو حجُّ بيت الله الحرام

بقلم : د. محمود شلتوت
شيخ الأزهر الأسبق

أيها المسلمون ..

إن القرآن الذي أنزله الله على نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم، فأخرجَ به الناس من الظلمات إلى النور، وأرشدهم به إلى سبل السعادة والحياة الطيبة، جعل اللهُ لنزوله عبادتين تتكرران بتكرر السنين والأعوام، تذكرون فيهما نعمة الله عليكم، وتشكرونه على ما هداكم به من الإيمان: عبادة الصوم؛ بالنَّظر إلى الشهر الذي نزل فيه، وهو رمضان، وعبادة الحج؛ بالنظر إلى المكان الذي نزل فيه، وهو مكة، وكما جعل الصومَ لذلك ركنًا من أركان الدين، جعل الحج ركنًا من أركان الدين.

والحج هو: زيارة بيت الله الحرام، وقد فرضه اللهُ على المسلمين بشرط القدرة والأمن على الطريق: » وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ « [آل عمران: 97].

فرضَ الله الحـــج وَجعله في مكانٍ واحد، وزمان واحد، يجتمع فيه المسلمون من كافة الأقطار، بنداء واحد، وتلبية واحدة، وأمنية واحدة، إخوانا في الله، رحماء بينهم، يتعارفون ويتناصحون ويتعاونون، فتتحد كلمتُهم، وتقوى شوكتهم، ويعظُم شأنهم في أعين الخصوم المناوئين » وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ « [الحج: 27، 28].

فَرَضه وخصه بمكة المكرمة التي أوجدَ فيها أولَ بيت وضع للناس » مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا « [آل عمران: 96، 97]؛ تذكيرًا بنعمة الإسلام الذي بثق من تلك الأماكن، فطبَّق الآفاق، واهتدى بنوره أهل المشرق والمغرب، فكان خيرَ مرشدٍ وأعظمَ منقذ، أخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد.

فرضه اللهُ وخصَّه بالأشهر التالية لرمضان لتتلاحق الذكريات: ذكرى المكان بذكرى الزمان، فيشتد تعلُّق القلب بما له الذكرى، وهو القرآن، فتنطبع النفوس في بقية السنة على شرائعه وإرشاده، فلا تحيد عنه، ولا تميل إلى سواه، وليكون اتجاه المسلمين إلى بارئهم بزيارة بيته الحرام، ودخولهم في حظيرة قدسه عقب التصفية الرياضية التي اكتسبوها من الصوم في شـــهر رَمضان، فيكونَ ذلك أدعى للقبولِ، وأقرب إلى الإجابة.

فرضه وحدَّد ميقاته، وبيَّن آدابه، وشرح مناسكَه، ووعد عليه بعظيم الثواب: » الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ « [البقرة: 197].

هذا هو مكان الحج من دِينكم أيها المسلمون، وهذا هو سرُّ افتراضه عليكم، فبادروا أيها المستطيعون إلى أداء فريضـــة الحج، واعلموا أن ما تنفقونه في سبيله يُوف إليكم وأنتم لا تظلمون.

بادروا إلى أداء فريضة الحج، وتعرَّفوا بســـفركم إلى الأقطار الحجازية أحوال إخوانكم المســـلمين، وأطعموا جائعَهم، واكسُوا عاريَهم، وأنقذوا فقيرَهم من مخالب الفقر والفاقة.

حققوا دعوةَ أبيكم إبراهيم: » رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ « [إبراهيم: 37].

سافروا إلى الأقطار الحجازية، وأدُّوا فريضة الحج، يؤتِكم ربكم كفلينَ من رحمته؛ كفل لأداء فريضة الحج، وكفل لتفريج كرب المسلمين.

أيها المسلمون، إن الله سبحانه وتعالى علَّق فلاحَ الإنسان وسعادته في الدنيا والآخرة على فعل الخير، والدعوة إلى الـــخير؛ قال تعالى: » وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ « [آل عمران: 104]، وقال تعالى: » يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ « [الحج: 77]، والخير اسم لكل ما يرضاه اللهُ ويكون نافعًا في الدِّين أو الدنيا أو فيهما.

ألا وإن طرقَ الخير كـــثيرةٌ لا تكاد تحصَى، وقد رغب اللهُ في سلوكها، وأوصى بها، ووعد الله عليها جميعها في كتابه العزيز عظيم فضله، وجزيل مثوبته، فقال: » وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ « [البقرة: 197]، وقال: » فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ « [الزلزلة: 7]، وقال: » مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ « [النحل: 97].

ولكنَّ طرقَ الخَير - على كثرتها واستتباعها لعظيم الأجر - ليسَت في درجة واحدة، بل تتفاوت منزلتُها عند الله بتفاوتها في عموم النفع وخصوصه، وسهولة العمل ومشـــقته، فما عمَّ نفعه وعظمَت مشقتُه ارتفعَت منزلتُه وسَمَت مكانتُه؛ فالصلاة خير، والصوم خير، والزكاة خير، والأمر بالمعروف خير، والنهي عن المنكـــر خير، وإماطة الأذى عن الطريق خير، والتسبيحة خير، وصلة الأرحام خير، والصلح بين الناس خير، وهكذا إلى آخر ما فيه نفع للناس وكان مَرْضيًّا عند الله، ولكن أمرًا واحدًا جمع أنواعًا من النفع تفرقت في غيره، ومجموعة من البرِّ لم تجتمع في غيره، وهو حجُّ بيت الله الحرام، ففيه إنفاق المال ابتغاء مرضاة الله وفي سبيل الله، وفيه إجهاد البدن في وعثاء الســـفر، ومشقة مفارقة الأهل والوطن للقيام بواجب شـــكر الله المنعم عند بيته المحرم، وفيه إشهاد المرء على نفسه إشهادًا عامًّا يحضره الألوف من إخوانه المسلمين في صحراء جَرداء ليس فيها للنفـــس متعة - بأنه العبد والله هو المعبود، وأنه العاجزُ والله هو القوي، وأنه الفقير والله هو الغني، وأنه السائل والله هو المسؤول، وأنه المستعين والله هو المســـتعان، رب الحمد والنعمة، لا إله إلا هو الغني الحميد.

إن من امتلأ قلبُه بهذا الموقف، وعرف به عزةَ الله وذلة العبد - صفا قلبُه، وسمَت روحُه، وطابت للخير نفسه، فلا يعرف الشر، ولا تقترب النقيصة منه،

فيه إنفاق المال ابتغاء مرضاة الله وإجهاد البدن بوعثاء السفر ومشقة مفارقة الأهل والوطن للقيام بواجب شكر المنعِم عند بيته المحرم

هنا يشهد المرء على نفسه إشهادا عاما يحضره الألوف بأنه العبد العاجز الفقير والله هو المعبود والقوي والغني

ورأى اللهَ في كل شيء؛ في عُسره ويُسره، في صحته ومرضه، في غناه وفقره، قد أسلم نفسه لله: » وَمَنْ يُسْـــلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى « [لقمان: 22]، ولهذه الاعتبارات كان الحجُّ من أسمى معاني الخير، وقد جاء تأييدًا لهذا المعنى وكشفًا عن منزلة الحج عند الله - قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((الحاج في ضمان الله مقبلًا ومدبرًا))، وتلك منزلة لم نرَها لغير الحاجِّ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((من حج فلم يرفث ولم يفسق، رجع كيومَ ولدته أمه))، وقوله صلى الله عليه وسلم: ((العمرة إلى العمرة كفارةٌ لما بينهما، والحجُّ المبرور ليس له جزاء إلا الجنة))، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، نرى الجهادَ أفضل العمل، أفلا نجاهد؟ فقال: ((لكنَّ أفضل الجهاد: حجٌّ مبرور)).

وقال صلى الله عليه وسلم: ((من حج فلم يرفث ولم يفسق، رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمُّه))، وسئل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: أي العمل أفضل؟ قال: ((إيمان بالله ورسوله))، قيل: ثم ماذا؟ قال: ((حجٌّ مبرور))، وعنه صلى الله عليه وسلم: ((مَن فرَّج عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، فرَّج اللهُ عنه كربة من كرب يوم القيامة)).

هذا جزاؤك يا مَن نويتَ الحج واعتزمتَ فعلَ الخير في حجِّك، وهنيئًا لك سلفًا بهذا الجزاء الذي أعد لك: » فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ « [القمر: 55].

عَن أبي سَعيد الخُدري، أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: ((يقول الله عز وجل: إن عبدًا صححتُ له جسمَه، ووسعتُ عليه في المعيشة، تمضي عليه خمسةُ أعوام لا يَفد إليَّ - لمحرومٌ)).

وعن أبي أمامة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((من لم تحبسه حاجةٌ ظاهرة أو سلطانٌ جائر فلم يحجَّ، فليمُت إن شاء يهوديًّا، وإن شاء نصرانيًّا)).

فيعملون بصدق وإخلاص على إسعادهم وإسعاد أمتهم، لا يعرفون للشر سبيلا، ولا للإفساد طريقًا.

هذا هو الحج الذي شرعه الله، وقال فيه: » وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ « [البقرة: 197]، وهذا هو جزاؤك يا مَن نويتَ الحجَّ واعتزمتَ فعلَ الخير في حجك، فهنيئًا لك هذا الخير الذي أعد لك في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((مَن حجَّ فلم يرفث ولم يفسُقْ، خرج من ذنوبه كيومَ ولدته أمه)).

أسأل الله لي ولإخواني التوفيقَ لحجِّ بيته، والتمتُّع بمشاهدة هذه البقاع المقدَّسة مع الذين أنعم الله عليهم، وجعلهم لدعوته مستجيبين.